رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد العاشر
تشرين ١ (او كتوبر) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 10 Oct. 1957
5ème année

سياسة العرب الخارجية

بقلم محمد النقاش

السياسة الخارجية لبلد من البلدان ، ليست هدفا بحد ذاتها ، وانما هي احدى الوسائل لتحقيق اهداف البلد من سيادة ومنعة ورخـــاء . وهي ككل وسيلة ، خاضعة للتبديل والتحوير حسب المصلحة ، وتبعا للظروف . بمعنى ان العواطف والمباديء ضئيلة الاثر في تحديد السياسة الخارجية . فقد تضطر الدولة الى التعاون مع دولة اخرى ، لا تربطها بها اية رابطة من حيث العرق والدين والمذهب السياسي والاجتماعي . وقد تتعاقد مع دولة بعيدة عنها ، جغرافيا او تاريخيا ، وقد تمد يدها الى عدو تقليدي لدرء خطر موقت .

وهكذا رأينا الفرنسيين مثلا يحالفون الروس في حربين عالميتين ضـد الالمان ، ثم رأيناهم ـ اي الفرنسيين ـ في حلف عسكري واقتصادي واحد مـع الالمـان .

ورأينا الايطاليين ـ وهم اقرب الشعوب الى الفرنسيين من جميـع النواحي ـ يتحالفون مع الالمان ضد هؤلاء الفرنسيين...

وفي ذات يوم ، تعاونت تركيا مع الد اعدائها التاريخيين ، عنيـت الروس ، وتعاونت يوغوسلافيا الشيوعية مع اكبر الدول الرأسمالية ضد موســكو . كما تعـاونت من قبـل هذه الدولة الرأسمالية مع موسكو نفسها ضد هتلر .

ولو شئت سوق الشواهد على متناقضات السياسة الخارجية ، لما عز علي ذلك ، فالتاريخ حافل بها . وهي تتلخص في قول مكيافلي مأثور ، ينسب الى تاليران كما ينسب الى دزرائيلي : « ليس لنا صداقات دائمة، ولا عداوات دائمة ، وانما لنا مصالح دائمة » .

هذا مع العلم ، بان التعاون والتحالف بين دول ذات روابط عرقية او ثقافية او تقليدية ، يبقى اجدى واثبت على الايام .

سياستنا الخارجية

ولنتأمل على هذا الضوء سياستنا الخارجية ، اي سياسة الدول العربية جمعاء . ولنحصر الكلام في الدول التي تحررت تماما ، وصار لها ان تختار في وضع سياستها الخارجية ، لا تلك التي اضطرتها وتضطرها ظروف معينة الى اعتناق سياسة خارجية معينة . ولعل الدول المتحررة سياسيا هي حسب التسلسل الزماني في التحرر : اليمن والسعودية وسوريا ولبنان ، فمصر فالعراق فالاردن ، اي الدول التي اسست جامعة الدول العربية .

وما من شك في ان الشعب العربي في هذه الاقطار يطمع في سياسته الخارجية ، ان تسهم في تحقيق اهدافه القومية ، وهي : نوع من الوحدة او الاتحاد في دولة كبيرة ، تضمن له كيانا سليما مستقرا ، في حقـلي السياسة والاقتصاد ، وتكفل له ازالة الخطر الصهيوني ، ودرء الاخطار الخارجية على استقلاله وعلى اقتصاده ، وتكون دعامة من دعائم السلم في العالم ، بحيث لا تتحول هذه الرقعة الواسعة من الارض ، العظيمـة الاهمية من الناحية الاستراتيجية ، الى بقعة تنازع بين القوى الجبارة المتصارعة ، بل على العكس واحة امن وتهدئة ، نتعاون مع الجميع فـي سبيل رخائها ورخاء البشرية ، مطبقة ميثاق الامم المتحدة بنصه وروحه .

الطبقات الحاكمة

على ان ارادة الشعب وان تكن القاهرة المظفرة في النهاية تصطـدم باديء الامر بعقبات كثيرة . حتى في اعرق الدول ديمقراطية ، فكيـف في بلدان ما زالت تتحكم فيها قوى متعددة ؟ والعقبات التي تصطـدم بها ارادة الشعب العربي في بعض اقطاره ، هي الطبقات الحاكمـة . فلهذه الطبقات مصالح ومطامع تضلها في كثير من الاحيان عن سواء السبيل، فتتجاهل الوحدة ـ او تريدها تحت امرتها ـ وتتساهل مع الاستعمار او الاستثمار وتتعاون معهما ضنا بهذه المطامع ، وحرصا على تلك المصالح .

ومطامع الطبقات الحاكمة ومصالحها تختلف هنا وهناك ، وتراوح بـين رجعية تخشى التحرر التام والاتحاد الشامل لان فيهما قضاء عليها ، وبين صداقات وفية تدين احيانا لعهود الاستعمار الماضية ببقائها واستمرارها ، وبين اقليمية طائفية تخشى الانصهار في بوتقة قومية كبرى ، وبيـن علاقات اقتصادية خطيرة مع دول غربية (النفط) يصعب التحلل منهـا الخ ... الخ...

ولا ريب انه كان لهذه الطبقات الحاكمة يد في ضياع فلسطين . فلو صممت تصميما كليا على انقاذها ، سالكة سياسة الشجاعة والفداء ، لما قامت اسرائيل ، او لما قامت على الاقل بالشكل الحاضر .

سوريا ومصر

ولم تفد هذه الطبقات الحاكمة كثيرا ولا قليلا من درس فلسطين الفاجع ...

على ان هذا الدرس الذي هز الشعب العربي هزا ، كانت له اثاره الفاعلة السريعة في سوريا ، ثم في مصر . فبعد سلسلة انقلابات في الاولى ، وثورة ظافرة في الثانية ، وصلت الى مقاعد القيادة في القطرين قوى جديدة ، قوى من صميم الشعب ، تجاوبت مع الشعب العربي في كل مكان ، وآمنت بان التحرر في الداخل والخارج ، هو طريق القومية العربية التقدمية الى التبلور والنجاح .

جناية حلف بغداد

كان اول ما فكرت فيه مصر وسوريا لبناء سياسة خارجية موحدة للعرب ، انشاء حلف عسكري عربي ، والمناداة بنبذ الاحلاف الاجنبية العسكرية ، والتعاون مع الغرب تعاونا نزيها فيه مصلحة الطرفين .

في تلك الايام اي في عام ١٩٥٤ ، لم يكن احد من العرب يفكر في مد اليد الى موسكو . كان الجميع يعلمون ان ماضيا طويلا ـ بحلوه ومره ولو بمره اكثر من حلوه ـ يجمع بينهم وبين الغرب ، على صعيد التبادل الاقتصادي ، والتفاعل الثقافي . بينما الشرق الشيوعي ، هو المجهول التام تقريبا بالنسبة اليهم .

على ان اسراع العراق في عقد ميثاق بغداد ، وانفراده بسياسة خارجية محدودة ومقيدة بشروط عسكرية ، نسف هذه السياسة من اساسها ، وخلق جوا من العداء والانقسام وسط المجموعة العربية ، وكان عونا للغرب ان يتشدد مع بقية العرب ، على امل ان يجرهم الى ميثاق بغداد . وخلق بالتالي عداء شبه سافر بين هذا الغرب وسياسة العرب التحررية في مصر وسوريا .

في اعتقادنا ان انفراد العراق بدخول ميثاق بغداد ، هو اول الخيط في ما وصلت اليه سياسة العرب الخارجية اليوم ، بكل محاذيرها على الغرب. فلو حققت سياسة عدم التحالف العسكري التي تبنتها مصر وسوريا والسعودية ولبنان واليمن يومذاك ، لكان ذلك في مصلحة الوحدة العربية من جهة ، ومصلحة الغرب من جهة ثانية .

ولو ادرك الغرب مصلحته حقا ، لساير الشعور العربي القومي ، ووضع يده في يد القوى العربية التقدمية المتحررة ، وبذل لها العون الاقتصادي الذي تحتاجه ، وزودها بالسلاح ، وعمل على حل مشكلة فلسطين والمغرب كله يومذاك حلا عادلا ... اذن ، لكسب صداقة العرب ولما خطر لاحد منهم ان يتلفت نحو موسكو .

بل ان موسكو نفسها ما كان يخطر لها ان تدخل العالم العربي ، وما بدأت تستلطف هذا العالم وتغازله الا يوم راته يقاوم حلف بغداد مقاومة جبارة . عندئذ اكتشفت موسكو ان العرب ليسوا كمية مهملة ، ولا هم امعات عمياء للغرب ، فمدت يدها ...

نحو الشرق

وكان لا مفر لمصر وسوريا من قبول هذه اليد . هنا نرى مرة جديدة، كيف تفرض السياسة الخارجية نفسها على بلد من البلدان . فعندما تهدد كيانك وحريتك قوى هائلة لا مفر لك من الاستعانة عليها بقوى هائلة مماثلة .

ومع ذلك ، فان مصر وسوريا تريثتا ، وظلتا حريصتين على مبدأ عدم التحالف مع اجنبي ، ولم تنحازا الى المعسكر الشرقي ، بل اكتفتا بعقد صفقات اسلحة واتفاقات تجارية غير مقيدة بشرط . ولم تقطعا مع الغرب، ولا سدتا النوافذ بينهما وبينه ، بل نادتا بالحياد الايجابي.

الحياد الايجابي

وهذا الحياد الايجابيليس سرا مغلقا ولا لغزا معمى . انه يعبر عن فكرة واضحة . فنحن العرب لا نستطيع اعتناق الحياد التام ، كسويسرا مثلا ، التي استنكفت حتى عن دخول الامم المتحدة ، تزمتا في الحرص على حيادها الصرف . لا نستطيع ان نكون كسويسرا ، لاننا دول متخلفة ما زالت تحتاج في كثير من شؤونها الى عون خارجي . نحن مثلا في حاجة الى شراء اسلحتنا من الخارج ، وفي حاجة الى تنمية اقتصادنا بمعونة الخارج . لكننا في الوقت نفسه ، لا نريد ان ندفع استقلالنا وحريتنا ثمنا لذلك . ولما كانت الاحلاف العسكرية فيطليعة الاثمان، فقد استبعدها الرئيس عبد الناصر منذ اللحظة الاولى . وعلق صفقات الاسلحة والمعونة الاقتصادية على شرط واحد ، هو ان تكون دون قيد او شرط.

ومع ذلك ، فقد كان هنالك ثمن لهذه الصفقات والمساعدات : هذا الثمن هو اولا خير السلام العالمي ، وهو ثانيا بالنسبة الى اميركا ، مكافحة الشيوعية من طريق آمن غير مباشر ، وبالنسبة الى روسيا ، الخلاص من قواعد عسكرية معادية تقام على ارض قريبة من حدودها .

بمعنى ان الحياد الايجابي ، هو تعاون مع المعسكرين الدوليين الكبيرين ، دون الانحياز الى احدهما ، ودون تقوية احدهما على الاخر ، ودون البقاء في خلوة مع احدهما ، اي تحت رحمته وسيطرته .

ولئن قبل احد المعسكرين للتعاون على اساس هذا الشرط ـ وهو المعسكر الشرقي ـ ورفض المعسكر الاخر ـ الغربي ـ التعاون على اساسه فليس ذلك ذنب العرب ، ولا ذنب الحياد الايجابي ..

غلطتان اخريان

لا اراد الغرب ان يساعدنا دون شرط ، ولا اراد ان يساعدنا سواه : ومن هنا ازداد الاعتقاد عند العرب بان انتفاضة استعمارية جديدة تعصف بالغرب ، وتتجلى اكثر ما تتجلى في حرب الجزائر التي يشنها الفرنسيون على المجاهدين الجزائريين ، بل على المواطنين الآمنين ، برضى اميركا وبريطانيا ...

لكن الرئيس عبد الناصر ـ وهو التعبير الصادق المجسد عن ارادة الشعب العربي التحررية ـ لم يلتو او ينكر . بل ازداد عنادا واصرارا . وامم شركة السويس الفرنسية ـ البريطانية ردا على رفض تمويل السد العالي ، وكانت الغلطة الثانية التي اقترفها الغرب ، بذلك العدوان المثلث الآثم الملوث بالصهيونية الذي باعد الشقة بينه وبيننا ، ودفع موسكو دفعة جديدة الى الشرق ، ثم كانت الغلطة الثالثة ، التي شاءوا ان يتداركوا بها الغلطة الثانية . فكانت بنتائجها اسوأ منها .... ذلكم هو مبدأ ايزنهاور الذي انطلى على الطبقات الحاكمة في بعض البلدان العربية التي كانت تساير السياسة العربية ـ السورية . وظهر ان هدفه الاساسي عزل مصر وسوريا ، وتشديد الضغط على القطرين المناضلين ، لاسيما على سوريا ، على حسبان انها لقمة اسهل ... فحبطت الخطة من جديد ، وكان من عواقبها توسيع الهوة مجددا بيننا وبين الغرب ، وتقارب آخر مع موسكو ... بمعنى ان مبدأ ايزنهاور الذي قصد منه ـ ظاهريا ـ مكافحة الشيوعية ، و ـ عمليا ـ استبعاد

السوفيات ، اعطى نتيجة عكسية .

بعبع الشيوعيـــة

ولقد لعب الغرب لعبة المباديء معنا . فراح يلوح بالخطر الشيـوعي الداهم على الشرق الاوسط . ولئن جازت هذه الحيلة على بعض حكام العرب ، فهي لم تجز على الشعب . ذلك ان هذا الشعب خبر من مباديء العالم « الحر » مافيه الكفاية . فهذا العالم ـ الديمقراطي وغير الشيوعي وغير الملحد ـ لم يعاملنا يوما بوحي من الديمقراطية الصميمة والدين الصحيح . لقد عانينا الكثير من قسوته الاستعمارية في المشرق والمغرب على السواء . ولقد تناسى مسيحيته وانسانيته جميعـا ، حين آزر الصهيونية ، ومكّن لها في ارض مقدسة عند المسيحيين والمسلمين ، وشرد مليونا من سكانها الآمنين ...

اما اسطورة الخطر الشيوعي ، فالعرب الواعون ينظرون اليها من خلال المفاهيم التالية :

اولا ـ ان الشيوعية كعقيدة ومذهب،لا تقاوم الا بعقيدة ومذهب افضل. وهم واثقون بان هذا المذهب وتلك العقيدة على اي حال ، ليسا في جعبة الغربيين .. وبان مقاومة الشيوعية تكون اخر ما تكون بتعزيز الصهيونية والاستعمار في بلادهم ...

ثانيا ـ ان الشيوعية بوصفها عقيدة ومذهبا ، ان كان فيها الخير للعالم، فلا بد لها ان تعيش ، ولو وضعت في وجهها جميع قوى الارض المادية . وان كانت شرا ، فستموت من تلقاء نفسها ، حتى في روسيا .

ثالثا ـ ان ما يسمى الشيوعية الدولية بدأ يلفظ انفاسه ،حتى في اقطار شيوعية ، او لفظ انفاسه تماما ، كما هي الحـال في بولونيـــا ويوغوسلافيا وربما الصين . بمعنى ان سيطرة موسكو على العالم الشيوعي باسره ، لم تعد ذات موضوع . وهي تعمل على كسب صداقـــة دول شيوعية ، بالود والتفاهم ، لا بالقوة . فلا خطر اذا ، من سيطرة موسكو على بلدان عربية غير شيوعية ، لمجرد تعاونها معها اقتصاديا ، وتضامنهـا معها في رد العدوان عنها ، دون محالفات عسكرية .

رابعا ـ ان الشيوعية الدولية قد تنتشر في العالم ، على اساس العنف. لكن ذلك لن يتم الا في حرب عالمية ، والعرب بوقوفهم على الحيـاد ، يساعدون على عدم نشوب هذه الحرب ، ويخففون من حدة التوتر ـ في بقعة حساسة ـ بين الشرق والغرب .

خامسا ـ ان لدى العرب رسالة روحية يفخرون بها ، ونظاما اجتماعيـا مستمدا من هذه الرسالة اذا عرفوا كيف يطورونه على ضوء جوهرها ، وتبعا لمتطلبات العصر الحديث ، فهو يضمن لهم الطمأنينة والرفاهية . وليسوا في حاجة الى ان يستوردوا عقيدة او مذهبا بعجره وبجره من خارج .

اللوحـــة كما هي ..

على ان مسألة انتشار الشيوعية او عدم انتشارها في الوطن العربي ، تبدو لنا ـ في الوقت الحاضر ـ امرا ثانويا .

الشيء الجوهري انالسياسة الخارجية التي فرضتها علينا الظـروف والتي تكشفت بكل اوجهها لدى ما سمي الازمة السورية ، ادت بنا الـى نتائج حسنة ونتائج سيئة ، سنحاول استعراضها فيما يأتي :

النتـائج الحســـنة

١ ـ رسخت اقدام سوريا ومصر في تحرر تام ، اذا نجا نهائيا من مؤامرات الغرب ، فسيجعل منهما قوة اقتصادية وعسكرية طيبة ، لاسيما اذا تم الاتحاد الفدرالي بينهما .

٢ ـ نجاح السياسة المصرية ـ السورية من شأنه ان يجر اقطارا عربية اخرى الى صفهما .

٣ ـ تجميد الخطر الاسرائيلي .

٤ ـ استنكاف اية دولة عربية ـ وهذا هو الاهم ـ عن مجـــــاراة اي اجنبي في شن عدوان على دولة عربية اخرى ، ولو اختلفت معهـا اختلافـا كليا في الاجتهـاد السياسي الخارجي . بل وقوفها معهـــا في حالة شن مثل هذا العدوان .

اما النتائج السيئة فهي :

١ ـ انقسام العرب بشكل يؤدي الى تأخير وحدتهم .

٢ ـ دخول المعسكرين الدوليين المتنازعين ارض المنطقة . بعد ان كان احدهما خارجها : مما يزيد في خطر الاحتكاك والتنازع .

٣ ـ جعل كل نزاع بيننا وبين اسرائيل ذا طابع دولي صارخ . فاذا هاجمتها مصر وسوريا مثلا ، اعتبر السوفيات هم المهاجمين . واذا هاجمتهما هي ، اعتبر الغرب هو المهاجم . اي انه زال كل طابع محلي للنزاع العربي الاسرائيلي .

٤ ـ حرص جديد وشديد من الغرب على الحكومات الموالية له في بعض الاقطار العربية ، مما قد يقوي مركزها .

نحـو المستقبـل

وفي رأينا المتواضع ان العرب ـ وهم اليوم شئنا ام أبينا ـ في مأزق، يستطيعون الخروج بأنفسهم منه ، على أساس سياسة من الاعتدال .

وعليهم ان يسرعوا في ايجاد المخرج ، لئلا يسبقهم غيرهم إلى ايجاده، ربما بمعزل عنهم .

ينطلق هذا المخرج كما نعتقد من ان العرب على اختلافهم في السياسة الخارجية ـ ولو اختلاف حكوماتهم ، لان الحكومـات حين تجد السـند الخارجي تصبح قوة لا يسهل زوالها ـ ما زالوا متفقين متحدين فـي أشياء كثيرة : متفقين على اسرائيل ، متفقين على ان لا يعتدي بعضهـم على بعضهم ، متفقين على ان يقفوا صفا واحدا في وجه المعتدي ، متفقين ـ اخيرا ـ على ان مصلحتهم القومية في الاتحاد .

لهذا ، يمكنهم ان يجتمعوا ويقرروا سياسة جديدة قويمة تعتمد الاسس التالية :

١ ـ لا احلاف عسكرية مع اي اجنبي .

٢ ـ لا قواعد عسكرية لاي اجنبي

٣ ـ قبول المساعدات العسكرية والاقتصادية والفنية من اي كان ، دون قيد سياسي .

٤ ـ تنسيق هذه المساعدات وتقنينها بحيث لا يتمكن فريق خارجـي من الطغيان على فريق .

٥ ـ التعامل التجاري مع جميع الدول على اساس العرض والـــطلب ، والمصلحة المادية الصرف .

٦ ـ التعاون الثقافي والدعاوي على قدم المساواة ، واتباع سياسة حيـاد في الاذاعات الحكومية .

تلك خطوط كبرى للمخرج ، نعتقد انها في مصلحتنا كامة عربية من جهة، وفي مصلحة السلام العالمي نفسه. وهي خطوط قد لا يرضى عنها ولا يؤمن بها المتطرفون من الجانبين . لكننا على مَلء اليقين بان من له الكلمة العليا بين العرب ـ عنيت الرئيس عبد الناصر ـ لا يرفضها .

لكن ، ترى ، لو قبلناها نحن العرب ، هل يقبل بها الآخرون ؟

محمد النقاش